رسم في الظلام

ترجمة : هدى السيد

منذ سنوات ست ، وفي صباح أحد أيام شهر أكتوبر الذي تكثر في سمائه السحب الرمادية اللون ، كنت استلقي على سريري اطالع كتابا ، وفجأة رأيت بريقا يومض داخل رأسي واختفي الكتاب من أمامي ثم احتجت بعد ذلك الصرخه تماما - وسرعان ما وجدت نفسي سجينا - حبس قفص من الظلام ... وفي الحقيقة كان على أن أعد القوة لمواجهة تلك اللحظة المرعبة، ذلك انني فيما مضى كنت قد اصبت بمرض « الجلوكوما » الذي سلبني نور احدى عيني - وحذرني الأطباء حينذاك من ان العين الثانية قد يسري اليها المرض واصبحت بالفعل ومع ذلك فقد داخلني شعور سخيف يقضي بان أتجاهل هذا الأمر حتى اقر من ذلك المجهول المرعب الذي ظل يطاردني في كل لحظة .

وبينما أنا في طريقي الى المستشفى احسست أحدث نفسي وامنيها بان هذا الظلام لاشك أمر وقتي يزول بعد حين. تعلقت بهذا الأمل وتشبثت به حتى أطاح به الأطباء ... شعرت آنذاك وكان روحي تسقط في هوة سحيقة من اليأس والألم ذلك أنني عشت فيما مضى أعتز بكرامتي واستقلالي في الحياة ، أما الآن فقد ذهب كل شيء ... نعم لقد فقدت وظيفتي كمراجع حسابات احدى الصادق ، وقضيت في منزل عار من الأثاث وحيدا تائها في دياجير الظلام

وقضت عجلة الزمن بالنسبة لي مدة اسابيع طوال بعد ذلك الحادث الأليم ، لم أكن اشعر خلالها الا بايد تلمسني وأصوات تتحدث ، ويخيل الى انها أصوات وهمية آتية من عالم بعيد ، وفي بعض الأحيان كنت أجلس الساعات الطويلة صامتا لا أبدي حراكا ، ثابتا كالصخر الأصم

ولما حان الوقت لأغادر المستشفى احسست برعدة من الذعر تسري في كياني وتهز أعماقي ، ذلك أنني لم أدخر شيئا من المال فيما مضى استطيع به أن اقوم حياتي - ولكني علمت فيما بعد أن هيئة مساعدة العجزة سوف تقرر لي معاشا عن العجز الكلي، وأن ادارة الضمان الاجتماعي ستساهم هي الاخرى بنصيب كاعانة لي - لم يكن لدي مسكن آوي اليه ، اذ أنني كنت اقطن من قبل في مدينة صغيرة بقرب « فرجينيا » ، لم يكن لي فيها من اصدقاء أو معارف

اللهم الا قليلا . ولذلك قررت ان اعود الى مدينة « ساناما » وهي مدينة صغيرة عشت فيها وقتا ما حيث كان لي بعض الاصدقاء .

وفي مدينة ساناما هذه حدثت مصيبة ..

وقد فكرت جديا ان احاول الكتابة ، ولذلك اعلنت في احدى الجرائد اطلب سكرتيرا يعمل بعض الوقت وبينت في الاعلان اني ضرير ولا استطيع ان ادفع الا اجرا قليلا . وعلى الرغم من ذلك جاءني اكثر من اربعين شخصا يرغبون في العمل معي . ولكنني اخترت من بينهم آنسة تدعى (دوتي) جذبني صوتها الجميل . كانت تشفق علي بلا شك نادي الامر ، ولكن ما لبثت ان تحولت هذه الشفقة الى حب كبير كان الزواج ثمرته ـ ومن ذلك الوقت لم اعد اعيش وحدا ولكن مع ذلك كنت اشعر احيانا بأسى كبير . كيف لا ! وقد دفعت ـ (دوتي) ـ كما كنت ادعوها ـ الى اعماق جحيمي الذي كنت اعيش فيه .

لم تنجح محاولتي للكتابة كما توهمت اول الامر وذلك بسبب الصراع المظلم الذي كان قائما وراء عيني والذي وقف حجر عثرة امام تفكيري ، وكثيرا ما كنت انور واصرخ في وجه (دوتي) بشدة وعنف اذا ماحاولت ان تهدىء من روعي .

وذات يوم ، وعلى اثر احدى تلك الانفعالات المتكررة ، سمعتها تقول بصوتها الهادىء الصبور

ـ سأخرج لنزهة قصيرة . اليك هذا القلم وتلك الورقة فلربما احسست ميلا الى كتابة بعض الملحوظات .

ولما انصرفت أخذت افكر فيما عساي ان افعل لأرضي (دوتي) واصلح اثر انفعالي في نفسها .. بدأت أخط علامة على الورقة التي أمامي ثم مررت بأصابعي عليها .. لاحظت أن أطراف اصابعي اصبحت أكثر حساسية عن ذي قبل ، فقد استطعت ان أميز الصلابة التي رسمتها واشعر بملامحها بوضوح كبير .

حدثت نفسي آنذاك قائلا :

ـ يا لسوء الحظ ، لو أنك تعلمت الرسم فيما مضى لاستطعت على الأقل أن ترسم لها بعض المناظر ..

كنت على حق فيما قلت ، اذ انني لم أحاول قط في الماضي ان ارسم منظرا او لونا رسما .. وفجأة لاح في مخيلتي منظر كنت قد أعجبت به ذات مرة ، كان يصور حركة المد والجزر .. بحيرة ، تتهادى مياهها الحمراء في سحر وجمال أخاذ ، وتظل من خلفها غابة شامخة من أشجار الصنوبر .

همست في خاطري :

ـ حسن ، لن يضيرني شيء أن أحاول رسم هذا المنظر الجميل ..

ولما عادت (دوتي) تناولتها الورقة التي كنت ارسم فيها ـ مرت برهة من الصمت العميق سألتني بعدها :

ـ من رسم هذا المنظر ؟

ولما أخبرتها بما حدث همست قائلة :

ـ اذا شاهد أي شخص هذا الرسم فلن يظن أبدا أنك ضرير .

أمسكت بقلمي واخذت أرسم منظرا آخر لأريها كيف رسمت المنظر الأول . كنت أقيس المسافات وأدونها بعلامات

احطهما بطرف ابهامي ثم ارسم خطوطا اتحسس بها ملامح المنظر باطراف اصابعي ، وأوضح الظل والضوء بين اصابعي المتباعدة على مساحة الورقة !

... يا له من امر عجيب حقا ! شعرت وانا ارسم أن الظلام الذي كنت سجينه لم يعد فارغا موحشا بعد . فقد كنت أبصر من جديد ـ نعم كنت أرى من خلال ذاكرتي وليس من عيني ..

ومن تلك اللحظة بدأت اعيش مرة ثانية ، احدث اعمل في لوحتي بصبر كبير ، كان يشجعني عليه ايمان عميق بانني ربما أحاول شيئا فريدا لا نظير له . لقد احدثت أخطاء لا حصر لها ولكن كل خطأ منها كان عبارة عن بعد للتجويد والتحسين . ومن المعروف أن الانسان الذي يشعر بمسئولية التحدي لا شك انه على قدر كبير من الوعي والادراك كان احساسي الفني يتحرك في أعماق نفسي بسهل وألم في نفس الوقت . فقد كان على بادىء الامر ان أركز فكري وأحصر خيالي ـ ساعات طويلة ـ في الموضوع الذي أختار رسمه ، واحيانا كان يمتد بي الزمن الى أيام عديدة حتى استوعب الصورة في ذهني بوضوح تام واميز ملامحها وألوانها ، بعد ذلك كنت ابدأ في رسم الخطوط الاساسية للمنظر مستعينا في ذلك قلما عاديا من الرصاص اللين ليسهل عملي ان أستشعر خطه العريض ، وكنت افضل دائما رسم الاشياء الجوهرية في اللوحة اولا ثم أتدرج منها الى المناظر الظاهرية الاخرى ـ فمثلا اذا حاولت رسم باقة من الازهار الجميلة فاني ارسم الزهرة الاولى المميزة ثم يلي ذلك باقي الازهار أما عند رسم المنظر الطبيعي فكنت ابدأ بالمناظر الظاهرية كالمنزل أو المعابد أو الشجرة مثلا أو أي شيء آخر هام ثم أتدرج الى مادون ذلك ـ فاذا ما انتهيت من الرسم بدأت مرحلة التلوين . واشتريت لهذا الغرض أقلاما خاصة لتلوين اللوحات بألوان الزيت ـ وابتكرت مقصا لها يتكون من خمسة صفوف مميزة ، في كل صف ستة تجاديف لوضع الالوان المختلفة . وكلفت (دوتي) بوضع اللون الاخضر بجميع مشتقاته في الصف الاول الاخضر الداكن في أقصى اليسار وتتدرج بعد ذلك مشتقاته المختلفة . وهكذا بالنسبة لسائر الالوان كالازرق والبني والرمادي أما الصف الخامس . فقد خصصته للالوان المختلطة المتنوعة التي تلزم أحيانا في تلوين بعض المناظر الخاصة . وكنت اتذكر دائما هذه الصفوف على الترتيب السابق وموضع الالوان فيها . بالتمرين والممارسة استطعت أن استشعر خطوط رسمي بطرف ريشة الألوان .. وتعلمت كيف أتجنب اختلاط الالوان على لوحتي ، كذلك امكنني أن امير بينها ، واختار منها ما يلائم المنظر الذي ارسمه . فالالوان يختلف لمسها بالنسبة لما تحتويه من مادة ملونة . فمثلا اللون الازرق الداكن تركيب خشن يشبه في ملمسه ورق الصنفرة بينما اللون الازرق الفاتح يمتاز بملمس ناعم انسيابي . وتدريجيا وبمحاولاتي المتكررة تحسنت قدرتي على الرسم ولكن واجهتني في نفس الوقت بعض الصعاب . فعانيت عند ما كنت أحاول رسم موضوع ما ، كان يعوزني استيعاب الخيوط الملازمة للمنظر الذي أتخيله في ذاكرتي ، وبعض آخر كان وضوح المنظر في مخيلتي ، يبدو ضبابيا غير واضح المعالم .

وذات يوم وجدتني أسأل نفسي

ـ لماذا كنت صريرا وأنت صغير ؟

اى قبل ان يحكم عليك بان تصبح صريرا بالفعل ؟

واحسست في تلك اللحظة رغبة ملحة في ان اصبح في كل فرد يستطيع ان يرى نفسه قائلا

ـ « يا صاح استخدم عينيك ، كن انهما وانت تشاهد المناظر والأشياء المختلفة ، باحثا وراء كل تجربة جديدة، لاتدع الجمال يمر من حولك دون ان تشبع العين منه وتحتفظ به »

وبعد فترة استطعت ان ابتكر طريقة غريبة بها استطيع ان استرجع قوة ذاكرتي فكنت اذا ماستيقظت في الصباح استلقي برهة في هدوء وسكينة استعيد الماضي واستعرضه أمامي بوضوح وروية وابذل جهدي في تخير بعض المناظر واتذكرها في مخيلتي ، وهكذا امكنني ان استرجع منظرا كنت قد شاهدته ذات يوم وأنا واقف على قمة جبل «لوك أون » ، أشخص ببصري الى تلك المساحات الشاسعة التي تمثلها بسط واحية من الحصرة الناضرة في وديان أنهار امريكا الترامية ، بدت أمامي بحقولها مختلفة الالوان وانهارها متباينة التعاريج والانشاءات .

بعد ذلك لاح لمخيلتي منظر لمستنقع تحف به اشجار السرو ، تتلألأ مياهه تحت أشعة القمر الفضية ، ورايت بعين الخيال البحر الاطلنطي ، الذي يمتد نحو الشمال الشرقي ثائرا يرغي ويزبد بامواجه المتلاطمة

وعادة كنت اذا ماتملكني منظر ما واستحوذ تماما على مشاعري ، أحاول اولا رسمه في الخيال على الورق ، وقد وجدت من خلال تجاربي العديدة انه بالرغم من تراوح بين ثمان الى عشر

ساعات لأرسم منظرا متكاملا يملأ الحياة ، وتمتد هذه المدة الى الضعف تقريبا اذا قمت بتلوينه ـ ولكن مع هذا كانت هناك بعض اللوحات التي استغرقت مني شهورا كاملة من العمل المتواصل ـ وقد بلغ عدد اللوحات التي قمت برسمها تسعمائة لوحة (٩٠٠) تمت بعضها وأهديت الكثير منها ، كذلك جاءني الناس من كل فج ليروا انتاجي الفني وأخص بالذكر منهم الرئيس « ترومان » الذي خرج من عندي ومعه احدى لوحاتي ـ كما عرض علي رجل من نيويورك اتفاقا ينص بأن يكون له حق شراء جميع انتاجي .

ومرت السنوات القليلة التالية سراعا ـ ورزقنا خلالها ـ أنا وزوجتي ـ بمولود بلغ من العمر عامين يملأ المرح والحيوية وحب الاستطلاع البريء نفسه في ذلك شأن جميع الاطفال الامر الذي اضطرني أن أضع أقلام الرسم فوق البيانو لتهرب من عبثه المتواصل ، وتكون في مأمن من يديه .

والآن وبعد أن لاقيت من النجاح مالاقيت أصرح بأن حياتي لاتزال ضيقة الحدود ، محدودة الجنبات تحوطها بعض الحواجز التي كانت وليدة ظروف الخاصة ولكن مع ذلك أعترف بأني مدين لها بالكثير

وانى لأدرك تماما ـ رغم اني لست من هؤلاء المتضلعين في الدين ـ أدرك بأن وراء تلك السنوات الست الماضية كان يكمن هدف كبير ، هو الذي دلل الكثير من الصعاب التي اعترضت سبيل ، وحمل تلك الحواجز تتضاءل تدريجيا على عكس مابدت عليه اولا ، نعم أن مثل تلك الحواجز كفيلة بأن تفقد الشخص قلبه وتوهن عزيمته اذا ما استسلم لها ، ولكنه اذا مانذرت بهدفه بقوة لا تعرف الخور وأمل لا يتسرب اليه اليأس وثقة بالنفس لايوهنها الضعف فانه لاشك يشعر بشيء يتحرك في كيانه يجعله يتطلع الى حياة طيبة جديدة ـ وانه لواجدها .